البلاغة والتفكير الإبداعي

إعداد

د. أحمد بن عبدالرحمن بالخير

أستاذ الدراسات اللغوية المشارك

جامعة ظفار – سلطنة عُمَان

abalkhair@du.edu.om

الملخص

تهدف هذه الورقة إلى التعرّف على حقيقة العلاقة بين مادة البلاغة وعلم التفكير الإبداعي، من حيث إن مادة البلاغة تمثل عملية بناء شخصية الإنسان من خلال صياغة المعايير والموازين التي تعين الإنسان على قياس مستوى التعبير عن حاسة بيانه، بنوعيه إبانة واستبانة، وبهذا تكون البلاغة هي القدرة على إنتاج وتوليد الخطاب، كما أنها هي معايير تقويم وتفسير الخطاب، وتمييز الجيد من الأجود، وفق أصول ثابتة، لعل من أهمها: الجمع بين المختلفين في الجنس والتأليف السوي بينهما، بهدف استنباط الخصوصيات من المعاني النادرة لا الباردة، من خلال إثارة تفاصيل معادن المعاني الكامنة الغامضة في منحنيات كل نفس؛ وذلك لأن كل نفس تحمل نوعين من المعاني، أولهما: مشترك مع سواها من أخواتها، والثاني: المعنى الذي خلق لها، فهو من بنات أفكارها، ما عليها إلا أن تستنفر قدرات عقلها وقلبها وشعورها لتبدعه، فالإبداع ليس موهبة لاهوتية لا تعرف القانون والسنة، ولكنه قدرة كامنة يمكن تنميتها طالما لكل إنسان عقله وقلبه وشعوره؛ ليستنطق ويستثير فطرته، مكوناً بصمة بيانية بها ينماز، مؤسساً ذلك وفق اقتضاءات عقلية نفسية يتوخى منها الإبانة والاستبانة، والفهم والإفهام، والتأثير والتغيير، وهذا ما يحتم عليه أن يتوفر على عدد وأنواع من استراتيجيات التفكير بعملياته وطرائقه ليجتهد في اختيار ما يحقق مقصوده.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، التفكير البلاغي، التفكير الإبداعي، العلاقات التبادلية، العلاقات الماهيّة.

Rhetoric and Creative Thinking

Abstract

This paper aims to identify the reality of the relationship between rhetoric and the science of creative thinking, in that the rhetoric material represents the process of building the human personality through the formulation of standards and scales that help the person to measure the level of expression of his sense of statement, with its two types of clarity and resolution, and thus rhetoric is the ability On the production and generation of discourse, as they are the criteria for evaluating and interpreting discourse, and distinguishing the good from the best, according to fixed principles, perhaps the most important of which are: the combination of the different genders and the proper composition between them, with the aim of deriving the particulars from the rare, not the cold, meanings, by provoking the details of the minerals of meanings The mysterious lurking in the curves of every soul; This is because every soul carries two kinds of meanings, The first: shared with her other sisters, and the second: the meaning that was created for her, as it is a product of her thoughts. and his feeling; To speak and provoke his instinct, forming a graphic imprint with which he differentiates, establishing this according to the requirements of a psychological mentality that seeks clarity

and resolution, understanding and understanding, influence and change, and this is what necessitates that he has a number and types of thinking strategies with his operations and methods to strive in choosing what achieves his purpose.

Keywords: Rhetoric, Rhetorical Thinking, Creative Thinking, Reciprocal Relationship, Essential Relationship.

تمهيد:

لقد تطور علم التفكير في السنوات الأخيرة تطوراً نوعياً منذ أصّل علماء التربية لاتجاه يتبنى التعليم من أجل التفكير، وهذا اتجاه جعل "الهدف النهائي للتعليم هو تنمية التفكير بما يتيح للمتعلّم التمكّن من المتطلبات المعرفية والوجدانية لمواجهة تحديات العصر المتنامية"[1]. وما فتئت الأدبيات والدراسات تبحث في الشروط والأسباب التي تعين على تأصيل هذا الاتجاه، ثم تطبيقه في الواقع التعليمي، حيث إن اتجاه التعليم من أجل التفكير غدا المعيار على جدارة العملية التربوية بأكملها، فـ" تعليم التفكير يعد أداة أساسية في تحصيل المعرفة، ولم تعد النظم التربوية تهدف إلى ملئ عقول الطلبة بالمعارف والحقائق فقط، بل تعدت ذلك إلى العمل على تنمية التفكير وتعليمه؛ ليتمكن الفرد من التعامل مع متطلبات الحياة

المعاصرة"[2].

لقد غدت الحياة في عصر الثورات المعرفية تفتقر إلى وقود فكري متخصص. ولذا لم تقف الدعوة في تعليم التفكير عند حدود علم التفكير عامة، بل تغلغلت وتغازت حتى ظهرت للتفكير أنماط ومستويات. ولعل من أهم أنواع التفكير الإبداعي الذي يعد الاستجابة الصالحة للمشكلات التي تواجه المجتمعات في ضوء معايير الجودة العالمية التي أوجدت روح المنافسة لتحقيق التميز والإبداع في المنتج أياً كان نوعه، مما فرض واقعاً جديداً تطلب التعامل معه من خلال العمل الحثيث لحفز القدرات العقلية، وترجمتها إلى سلوكيات إبداعية تسهم في مواجهة الواقع الجديد. لقد أصبح التحدي الحقيقي للنظم التعليمية هو إعداد الإنسان القادر على مواجهة تحديات المستقبل، والتفاعل مع متغيراته ومستجداته[3].

والميزة اللافتة عناية علماء التفكير بالأدوات التي تضبط درجة مستوى التفكير الإبداعي من طرف، وتركيزهم على المهارات التي بوجودها يوجد التفكير الإبداعي من طرف آخر. والذي عرّفه جيلفورد على أنه مجموعة من المهارات تتضمن مهارات الطلاقة، والمرونة، والأصالة، والحساسية تجاه المشكلات. ومن ثمَّ العمل على إعادة صوغ المشكلة وشرحها بالتفصيل[4]. وما يميّز التعريف السابق ارتكازه على المهارة العملية التي تساوي التحقّق الواقعي بالتفكير؛ لأنها عمليات معرفية إدراكية يمكن اعتبارها بمنزلة لبنات أساسية في بنية التفكير[5]. إن هذه المهارات بدءاً من المستوى التمهيدي ووصولاً إلى المستويات العليا تمثّل القسم العملي والجانب الذي يحصى من علم التفكير.

المهارات المجسّدة للتفكير الإبداعي:

والتفكير الإبداعي تمثّله المهارات الآتية:

مهارة الطلاقة:

وهي القدرة على إنتاج عدد كبير من البدائل، أو المترادفات، أو الأفكار، أو الاستعمالات بسرعة وسهولة عند الاستجابة لمثير معين، وتقاس بحساب كمية الأفكار التي يقدّمها الفرد عن موضوع معين في وحدة زمنية ثابتة بالمقارنة مع أداء الآخرين.

مهارة المرونة:

وهي القدرة على توليد أفكار متنوعة ليست من نوعية الأفكار المتوقعة عادة، أو هي التحوّل من نوع معين من الفكر إلى نوع آخر عند الاستجابة لموقف معين، فالمرونة تمثل الجانب النوعي للإبداع، حيث إن التفكير الإبداعي يهتم بكسر الجمود الذهني الذي يحيط بالأفكار القديمة، وهذا بدوره يقود إلى تغيّر الاتجاهات والميول.

مهارة الأصالة:

وهي القدرة على التعبير الفريد وإنتاج الأفكار البعيدة والماهرة أكثر من الأفكار الشائعة والواضحة، فهي التميّز، وهي التفرّد في الفكرة والقدرة على النفاذ إلى ما وراء المباشر والمألوف من الأفكار. وجوهر

الأصالة كما يشير كينث هوفر هو القدرة على إنتاج أفكار غير مألوفة وتعرف بأنها استجابة غير متوقعة وغير مألوفة[6].

مهارة الحساسية تجاه المشكلات:

وهي قدرة الفرد على رؤية المشكلات في أشياء، أو أدوات، أو نظم اجتماعية قد لا يراها الآخرون فيها، أو التفكير في إدخال تحسينات يمكن إدخالها على هذه النظم[7].

إن علم التفكير يبقى في عداد العلوم النظرية لولا قابليته للتنمية من خلال مهاراته المقنَّنَة المؤسَّسَة على مقاييس ومعايير، فهي القسم المحسوس من عمليات التفكير. فالمهارة تتضمن ماذا ستفعل، ومتى تفعله، وكيف، وما الأدوات اللازمة، وما النتائج، وما الذي يجب أخذه بالاهتمام. فالمهارة هي كيفية التعامل مع المواقف، وخواطر المرء، وأفكار الآخرين. كما أنها تشتمل على التخطيط، واتخاذ القرار، والبحث عن الدليل، والتخمين، والابتكار.

وفي هذا السياق المعاصر لعلم التفكير تقف هذه الورقة على طبيعة علم البلاغة، ذلك العلم الذي تفتقر إليه كل العلوم، يقول الزمخشري في سياق حديثه عن أهمية علم البيان: "وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدّروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة وعيال عليه. إذ لا يحل عقدها الموربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو"[8]. إن موضوعات البلاغة وتطبيقاتها وأصولها وكلياتها مؤسَّسَة على مادة وجود الإنسان، وما مادة إنسانية الإنسان وتميّزه عن سواه من المخلوقات إلا حاسة البيان. والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون ضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر على الفهم والإفهام[9]. فالهدف من مادة البلاغة الانتهاء إلى نفس المخاطب بعد التنقيب عن المعنى، إذ إن المعنى يصدر من غير مظانه؛ لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع[10]، فالمعنى الأصيل النادر البكر محور قيام علم البلاغة، لذا ما كان للبلاغة أن تمتلك الأدوات والمعايير في إنتاج أو تفسير الخطاب لولا مكوّنا علم البلاغة، وهما:

علم معاني النحو: من خلال طاقات وهيئات وخصوصيات هذه اللغة متمثّلة في الوجوه والفروق التي تمتلك القدرة على الوصول إلى دقائق المعاني. يقول سيبويه: "هذا باب تخبر فيه عن النكرة بالنكرة، وذلك كقولك: ما كان أحد مثلك، وليس خيراً منك، وما كان أحد مجترئاً عليك. وإنما حسن الإخبار هاهنا عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه؛ لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلّمه مثل هذا، وإذا قلت: كان رجل ذاهباً، فليس في هذا شيء تعلمه كان قد جهله، ولو قلت: كان رجل في قوم فارساً، حسن لأنه قد تحتاج أن تعلمه أن ذلك في آل فلان، وقد يجهله. ولو قلت: كان رجل في قوم فارساً لم يحسن لأنه لا يستنكر أن يكون في الدنيا فارس، وأن يكون من قوم، فعلى هذا النحو يحسن ويقبح"[11]. فالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والاسمية والفعلية إلى سواها من طاقات اللغة في خدمة المعنى

النادر الغامض المتباعد السوي.

علم صنعة الشعر: إن الشعر علم له طبيعته وهيئته ومادته، حيث إن الشعر معدن البلاغة، فالشعر الذي يقرضه الشاعر صيغ قبل قرضه في خزانة علم الشاعر صياغة المعاني، من خلال العلاقات التي تجعل القصيدة من حيث النمو جسداً واحداً، فالشعر الغزير النادر ذو معان أبكار لا يستطيعه إلا من نقّب عن رسيس الصواب. والجاحظ يثبت أن كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال. وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها ... وذهبت العجم على أن تقيّد مآثرها بالبنيان ... ثم إن العرب أحبّت أن تشارك العجم بالبناء وتنفرد بالشعر[12]. فالشاعر بما أوتي من موهبة عمل على تنميتها وترقيتها هو المقدّم عند العرب؛ لما له من مخيلة على تصوير معاني الواقع وتشخيصها، ولما له من عقلية متعددة في مستوياتها، متنوعة في مضمونها، منسجمة مع الطبع المتهيئ والقريحة الوقادة، فلكل شاعر عالمه المنبثق من شقين: علمه المكتسب، وقريحته البيانية.

علم البلاغة والتفكير البلاغي:

على الرغم من كون مادة البلاغة بأصولها وموضوعاتها وتطبيقاتها مبنيّة على أساس تفسير وتقويم المعاني النادرة لا الباردة، والغامضة لا المبتذلة، والعلاقات السوية المتباعدة في الجنس لا العلاقات المكرورة الشائعة، حيث إنها مادة الوصول والانتهاء إلى مشابهات معانٍ خفية يدق المسلك إليها، فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل، ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدرر[13].

إن الهدف من تدريس البلاغة في الفهم والإفهام والإقناع والتأثير لا يكاد يتحقق على أرض الواقع، وذلك ناجم من انعدام الترابط بين موضوعات كتب البلاغة كمادة دراسية وبين الحياة اليومية. إن ذلك الانعدام الترابطي يثير أسئلة هي موضوع هذه الورقة: ما طبيعة العلاقة بين مادة البلاغة وعلم التفكير الإبداعي؟ وهل العلاقة بين مادة البلاغة وعلم التفكير الإبداعي علاقة تبادلية تفاعلية؟ أم أنها علاقة ماهيّة؟ من هنا سعت الورقة إلى الإجابة عن الأسئلة السابقة بغية الوصول إلى تجسيد العلاقة بين البلاغة وعلم التفكير الإبداعي من حيث أنظمة التفكير وعملياته في كلا العلمين، ومن حيث موضوعات وتطبيقات كلا العلمين.

تعرّف البلاغة بأنها كل معرفة تَكتَشفُ في الكلام فضلاً يُفضَّل به القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد[14]. وقد نعرّفها بأنها علم تستخدم فيه عمليات التفكير المختلفة لاستنباط المعاني بأبعادها وفق المقاصد والسياقات.

أما التفكير البلاغي فهو العمليات العقلية التي تستخدم في الكشف عن الأصول البلاغية، سواء كانت في كتابات واضعي العلم، أو في تطبيقات العربية.

في حين يعرّف التفكير الإبداعي بأنه قدرة الفرد على صنع شيء وخلقه، وإنتاج أفكار جديدة وواقعية،

وتركيب العناصر وإعادة تنظيمها.

أهم خصائص التفكير البلاغي:

من أهم خصائص التفكير البلاغي أنه:

- تفكير فطري:

إذا أيقن الإنسان بأن أول وأولى صفة فيه تميّزه عن غيره من المخلوقات، هي صفة البيان، وقف على طريق معرفة أصل وجذر هذه الصفة، من حيث المكان والمادة والهيئة. يقول عبد القاهر: "اعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويدلّ على سرائرها، ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان"[15]. فالبيان متعدّد متنوّع تعدّد وتنوّع سكان المعمورة، فلكل بيانه من حيث إن البيان صورة عن الشخصية، بما لها من فطرة تمثل هوية تخص كل واحد، فتميّزه عن أخيه التوأم، بله الشقيق، فضلاً عن أخ لأب أو لأم، وهكذا فأطياف المعاني في نفسه لها أطياف من اللغة في لفظه، وهذا هو سر فضل كلام على كلام، وإذا كان التفكير البلاغي في جذره ونشأته فطري، فلا يعني ذلك الاكتفاء بالذوق الفطري، بل لا بد من التحليل المكتسب وفق طاقات اللغة وخصوصياتها، من معايير ومقاييس الكلام الجيد من الأجود.

- تفكير إبداعي:

إذا كانت البلاغة هي القدرة على تمييز الكلام الجيد من الأجود، من حيث صياغة النظم المتمثل في ترتيب التراكيب ترتيباً يستنبط النادر من المعاني، وتأليف المختلف تأليفاً يقف على الغامض السوي من العلاقات الأبكار، وتصوير خصوصيات المعاني تصويراً يصعب على العقول الوقوف على الملاءمة المخصوصة الكامنة وراء الجمع السوي بين هذين المتباعدين، فإن التفكير البلاغي يتّسم بالإبداع من حيث جوهره، وذلك يظهر بتعدد أنواع عمليات التفكير التي تستخدم فيه، ما تكوّن بمجموعها منظومة جديرة بابتكار آليات وطرائق الغوص على كل جديد نافع من المعاني التي تشّكل نواة أفكار.

من هنا كانت موضوعات التشبيه والاستعارة والكناية مبنيّة على أنظمة من التفكير يجمعها قاسم مشترك واحد مؤدّاه الكشف عن المعاني بعد توليدها.

- تفكير حضاري:

إن هذه الخصيصة كامنة في جوهر التفكير البلاغي إذ يرتبط ظهورها وأثرها بالدورة الحضارية التي عليها أبناء هذا اللسان وتلك اللغة، وذلك لأن المدخلات التي تتولج إلى عقل الأمة وتعتمد على لسانها من حيث كونه وسيلة للتعبير عن مكنوناتها ومشاريعها وعلاقاتها، ستكون مخرجاتها على هيئة لغة تترجم السنن الاجتماعية والقوانين المطّردة التي بانتظامها والعمل بمقتضاها تترقى الأمة، والعكس صحيح.

- تفكير تغييري:

إن العملية البلاغية مؤسسة على أصل معرفة المخاطب معرفة تشمل مكونات الإنسان، كما ترعى البيئة التي تحيط ويحيط بها المخاطب، فالقول البليغ فكرة ممزوجة بدراسة أدوات إقناع المخاطب وأساليب التأثير بالمخاطب لضمان تغيير موقفه أو اتجاهه أو سلوكه. يقول السكاكي: "وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال، فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده من مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك، فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضي ضعفاً وقوة"[16].

إن التفكير البلاغي له طبيعة تنسجم واللغة العربية من حيث طرائق الإبانة فيها والمنسجمة وخصوصيات وكيفيات معاني النحو فيها من طرف، والمستمدة وعلم صنعة الشعر من طرف آخر.

العلاقة بين البلاغة والتفكير الإبداعي:

إن العلاقة بين البلاغة والإبداع قد تكون علاقة تأثير وتأثّر، حيث إن كلا العلمين يلتقيان في نقاط مشتركة، مثل إيجاد الروابط بين متباعدين، واستنباط معانٍ غزيرة، واستثارة وتحفيز أفكار جديدة.

إن التغلغل في أصول البلاغة الإنسانية عامة، والعربية خاصة، يشي بأن بلاغة اللسان لا يتصوّر وجودها من غير طبقات البيان التي تحكم الحاسة في شقي عملها، الإبانة والاستبانة، فالتشبيه البليغ مثلاً هو "إخراج الأغمض إلى الأظهر بالتشبيه مع حسن التأليف"[17].

بناء على ذلك قد لا تكون العلاقة بين البلاغة والتفكير الإبداعي مجرد علاقة بين علمين يتفقان في آليات وطرائق، أي أنها **علاقة تبادلية تفاعلية**، بل تتجاوزها إلى علاقة في الصفات الذاتية، وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار العلاقة بين البلاغة والتفكير الإبداعي علاقة ماهيّة أكثر من كونها علاقة تبادلية تفاعلية.

العلاقة الماهيّة:

إن لمادة البلاغة – كما لكل علم – هيئة وخصوصية تتميّز بها عن سواها، غير أن ذلك لا

يحجزها عن التلاقي مع علوم أخرى لا سيما من حيث الفحوى وإن اختلفت الأسماء، ولعل علم البلاغة بما له من مجالين رئيسين، هما: المجال المعرفي العقلي، والمجال الجمالي الوجداني، يكاد ينسجم مع علم التفكير الإبداعي المعاصر. بل إن علم التفكير الإبداعي في كثير من أهدافه قد ينسجم ومادة البلاغة لا سيما والتفكير الإبداعي يختص بخصائص تراكيب أو أبنية ما قبل الإبداع التي تشكل أساساً للاختراعات والاكتشافات الابتكارية وهي:

- جدة أو أصالة تراكيب أو أبنية ما قبل الإبداع، ومع أن التركيب أو البناء المعرفي الشائع أو المألوف يمكن تفسيره بأساليب ابتكارية، إلا أن احتمالية أو إمكانية حدوث الاستكشاف الابتكاري تكون أعظم إذا كان التركيب أو البناء الذي نبدأ به نادراً أو غير شائع أو غير مألوف نسبياً.
- غموض التركيب أو البناء حيث ينطوي هذا الغموض على إمكانية تقديم فرص أعظم للتفسير والاكتشاف الابتكاري، ويسهم الغموض في الاكتشافات التي تنتج عن العديد من أنماط الموالفات الإدراكية أو التصورية أو المفاهيمية بدرجة أفضل.
- المعنى الكامن أو الضمني، وهذا الحس بالمعنى يهيئ لتفسيرات جديدة وغير متوقعة.
- البزوغ أو الانبثاق أو الإشراق أو الإلهام والتي ترجع إلى المدى الذي من خلاله تبزغ أو تنبثق مؤشرات وعلاقات في التركيب أو البناء، وهي تنشأ نتيجة الوصول إلى الموالفة العقلية الصحيحة.
- التنافر أو التناقض أو التعارض والتي ترجع إلى التنافر أو التناقض بين عناصر أو مكونات التركيب أو البناء، وهذه غالباً ما تشجّع على استطلاع أكثر للكشف عن معان وعلاقات أكثر عمقاً، من أجل حلّ التناقض أو التنافر. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن مكونات التنافر أو التناقض في التوليف الإدراكي أو التصوري تنتج فرصاً أعظم للأصالة أو الجدة والاكتشاف أكثر مما تنتجه عناصر منسجمة أو متسقة مع بعضها بعضاً.
- التباعد أو التشعب أو التنوّع، وهي ترتبط بالغموض ولكنها ترجع رجوعاً محدداً إلى القدرة على إيجاد استخدامات متعددة، أو تفسيرات متعددة للعناصر التي تمثل التركيب نفسه، أو البنية ذاتها.

وهذه الخصائص ترتبط ببعضها بعضاً إلى درجة أنه يمكن تصنيفها أوجهاً متعددة للأبنية أو التراكيب التي تعد بيئة صحيحة للاختراعات أو الاكتشافات الابتكارية على تباينها أو تعددها.

إن الأسباب التي دفعتنا إلى القول بأن للبلاغة علاقة عضوية مع الإبداع لا سيما في مستوياتها العليا يمكن توزيعها على الترتيب الآتي:

- تاريخ نمو المادة من حيث تكوينها أو من حيث موضوعاتها:

إن تتبّعاً لتاريخ نمو موضوعات العلم يشي بأن موضوعات بلاغية بدأت ومضة على لسان شاعر تلقفتها يد عالم فصاغت منها مسألة بلاغية، لا بل إن علم البلاغة تكوّن من مزج ذكي من لدن علماء صانعي معرفة من أمثال الجرجاني.

- طبيعة اللغة:

تمتلك العربية كغيرها من اللغات - بدرجات متفاوتة – من السمات ما يجعلها ولودة لا تعقم أمام المعاني البكر، وهذا ما قاله ابن جني "هذه اللغة لا يكاد يُعلم بعدها، ولا يُحاط بقاصيها"[18].

وهذا تأصيل يحتاج إلى تفصيل من خلال أبرز عوامل ثراء اللغة، وهي:

- الإبداعية: لقد تقرر أن اللغة الإنسانية تتميّز بصفة الإبداعية، وهي إبداعية تنقسم إلى نوعين، في نوعها الأول: تستخدم قواعدها التقليدية للتعبير عن المعاني اللامتناهية. وفي نوعها الثاني: تطوّر قواعد جديدة ليتسنى لها مرونة استخراج المعاني واستنباطها. يقول تشومسكي: " في ظل الألسنية التقليدية تبرز بوضوح صفة الإبداعية كإحدى الصفات الأساسية التي تتصف بها اللغات بصورة مشتركة، فاللغة تتسم بميزة أساسية من حيث إنها توفّر للإنسان الوسائل اللازمة لكي يعبّر بصورة غير متناهية عن أفكار متعددة، ولكي يتفاعل بصورة ملائمة في عدد غير متناهٍ من المواقف الجديدة"[19]. فاللغة مؤسسة اقتصادية تتمكن بالقليل من الألفاظ أن تستحضر ما لا حصر له من المعاني، ذلك بأن المعاني لا يمكن ترويضها إلا بألفاظ، والمعاني غير متناهية، ولكن الألفاظ متناهية، فلا نظير له في لغات العالم. مهما تضخم المعجم في أي لغة من اللغات فإن ألفاظه تعدّ في النهاية بالآلاف، أما المعاني فلا يمكن إخضاعها بالحصر، ولو عددتها بالملايين[20].

وإذا كانت اللغات الإنسانية تشترك في هذه السمة، فلعل من الطبيعي أن تتفاوت في درجة الإبداعية تبعاً للمجالات الحضارية التي تسهم هذه اللغة في إنتاجها، وإن تخلّفت العربية عن ذلك في عصور الانحطاط الذي أصيب به أهلها إلا أنها تكتنز من المؤهلات التي تجعلها قادرة على منافسة أخواتها من اللغات، يقول صالح: "حين نصف العربية بسعة التعبير، وكثرة المفردات، وتنوّع الدلالات. وحين نتجرأ أكثر من هذا فنزعم أن لغتنا في هذا الباب أوسع اللغات ثروة، وأغناها في أصول الكلمات الدوال على معان متشعبة قديمة وحديثة، جدير بنا أن نذكر أن اللغات جميعاً دون استثناء تزداد ثروتها وتبلغ مفرداتها من الكثرة حدّاً لا نهاية له إذا كتب لها من شروط النماء والحياة والخلود ما كتب للعربية، فقد أتيح للغة القرآن من الظروف والعوامل ما وسع طرائق استعمالها وأساليب اشتقاقها وتنوّع لهجاتها، فانطوت من هذا كله على محصول لغوي لا نظير له في لغات العالم"[21].

- الاستعمال: ولعل أبرز العوامل في اشتمال العربية على هذا الثراء العظيم أنّ المهجور في الاستعمال من ألفاظها كتب له البقاء، فإلى جانب الكلمات المستعملة كان مدوّنو المعجمات يسجلون الكلمات المهجورة، وما هجر في زمان معيّن كان قبلُ مستعملاً في عصر من العصور، أو كان لهجة لقبيلة خاصة انقرضت أو غلبتها لهجة أقوى منها، وهجران اللفظ ليس كافياً لإماتته؛ لأن من الممكن إحياءه بتجديد استعماله[22].
- الإعراب: ومن خصائص العربية الإعراب. وما الإعراب إلا أن يعرب المتكلم عما في نفسه ويبيّنه، ويوضّح الغرض ويكشف اللبس[23]. يقول ابن فارس: "فأما الإعراب فَبِهِ تميّز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلاً لو قال: ما أحسن زيد غير معرب، أو ضرب عمرو زيد غير معرب، لم يوقف على مراده. فإذا قال: ما أحسن زيداً، وما أحسن زيدٌ أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده. وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها، فهم يفرّقون بالحركات وغيرها بين المعاني"[24].

إن اللغة بهذه الخصيصة تسمح بإضافات غير محدودة بين الأبنية اللغوية، والربط بينها، وتقييد بعضها ببعض، وهو ما يسمى في البلاغة (أحوال متعلقات الفعل). وكلما كانت تلك الإضافات كثيرة ومفيدة للمعنى المراد إيصاله كان الإبداع اللغوي أظهر وأوضح، ومن يستطيع القيام بتلك الإضافات المفيدة فهو أقدر من غيره على القيام بالعملية الإبداعية اللغوية. ولن يستطيع ذلك إلا من تغلغل في وجوه اللغة وكيفياتها، فعرف طرائقها وتمكّن من أصولها. يقول الجرجاني: "والواضع كلامه على المجازفة في التقديم والتأخير زائل عن الإعراب، زائغ عن الصواب، متعرّض للتلبيس والتعمية"[25].

- طبيعة الموضوعات البلاغية:

إن المتتبع لأقدم الموضوعات البلاغية - موضوع التشبيه – يلحظ أن التشبيه التمثيلي يحتاج إلى عمليات ذهنية أطول وأكثر تعقيداً من تلك التي يتطلبها التشبيه المفرد. وهو لذلك أمتع عند المتقبّل؛ لأنه لا يفي بمعناه إلا مداراة وعلاج طويلين.

يرى الجرجاني أن التأويل يتدرج في مستويات مختلفة وفقاً لبعد العلاقة بين طرفي التشبيه، فيقول: " ثم إنّ ما طريقه التأوّل يتفاوت تفاوتاً شديداً، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، ويعطى المقادة طوعاً، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأوّل في شيء، وهو ما ذكرته لك. ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمّل، ومنه ما يدقّ ويغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل رويّة ولطف فكرة... فإن التشبيهات سواء كانت عامية مشتركة، أم خاصية مقصورة على قائل دون قائل تراها لا يقع بها اعتداد، ولا يكون لها موقع من السامعين، ولا تهز ولا تحرك حتى يكون الشبه مقرراً بين شيئين مختلفين في الجنس، فتشبيه العين بالنرجس، عامي مشترك معروف في أجيال الناس، جار في جميع العادات، وأنت ترى بُعْد ما بين العينين وبينه من

حيث الجنس ... وهكذا إذا استقريت التشبيهات، وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوس لها أطرب ... وذلك أن موضع الاستحسان، ومكان الاستظراف ... أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين، ومؤتلفين مختلفين"[26]. فالأصل في الصورة التشبيهية أن تكون قائمة على الابتكار والجدّة والغرابة والطرافة، حتى يستطاع أن تمثّل إعجاب النفس، وتفاجئها بالمعاني والدلالات الإيحائية التخيّلية التي لا عهد لها بها، فتثير الدهشة والاستغراب، فمهمة الصورة أن تستكشف شيئاً بمساعدة شيء آخر، والمهم فيها هو ذلك الاستكشاف ذاته، أي معرفة غير المعروف، لا المزيد من معرفة المعروف. فالمبدع يستطيع بيقظته العقلية الفريدة، وتأمّله لأبعاد الصورة الشعرية ودقائقها أن يعثر على وجه مشترك بين المعنى المجرّد وبين الواقع العياني المرصود. في حين لا يتصوّر أن يتوفّر في الإنسان العادي مثله هذا الوجه المشترك أو يأتي عن طريقها ويستطيع عندئذ أن يعيد تنسيق عناصر الصورة وفق مشاعره وأفكاره لا وفق الواقع العياني المرصود. ويخرج بها من بعدها المكاني المقيس إلى بعدها النفسي، ويربط بين عناصرها ومشاعره وأفكاره ربطاً يضع لها نسقاً مكانياً لم يكن لها من قبل بحيث تصبح الصورة تعبيراً صادقاً عن الشعور أو الفكرة.

إن الخلق والإبداع يعني الالتفات إلى وجوه من الشبه خفيّة يدقّ المسلك إليها لا يلتقطها إلا من أوتي حساً مرهفاً ويقظة واعية فيتجنّب منها ما يمكّنه من إعادة تنسيق عناصر الصورة وفق حالته النفسية، فالتشبيه القائم على الابتكار والإبداع في انتزاع وجه الشبه يكون ذا تأثير كبير على النفس؛ لأنه يفيد النفس زيادة معرفة لم تكن معروفة لها من قبل، ولأن النفس تشعر باللذة تجاه هذه المعرفة الجديدة.

إن البلاغة في نظام العربية خاصة ولسان الإنسان عامة، لها ماهيّة يعبر عنها بالمسميات الآتية: خلق، إبداع، ابتكار، أصالة رأي، إبانة واستبانة، فهم وإفهام، المعنى البكر في العبارة البكر، خصوصيات المعاني. وبهذا تكون البلاغة والإبداع ماهيّة واحدة إذا نجحت البلاغة في:

- الكشف عن أبعاد المعنى من خلال النظر إلى الفكرة نظرة إحاطة ثم تفصيل.
- توليد وتشقيق المعنى المتشعب المتفتّق، من خلال الغوص على مكنون الضمير بحيث تنفجر المعاني وكأنها أنهار.
- دراسة المخاطب لتوجيه خطاب يتلاءم وحاله، من خلال دراسة مقامه ومقتضيات ذلك.
- الملاءمة بين المعنى وشعوره، وبين المعنى وحساسيته.
- الاعتماد على نوعيّ التفكير التقويمي النقدي كونه تمهيداً للوصول إلى النوع الثاني وهو التوليدي الإنتاجي الاستكشافي.
- الاعتماد على طرائق التخيل التباعدي، وقوة التصور، والربط بين المتباعدات، وتأليف

المختلفات، وسواها من طرائق إعمال العقل وبذل غاية الوسع الفكري بهدف الوصول إلى خفي العلم.

- قدح علم معاني النحو بعلم صناعة الشعر قدحاً يتوخى الوصول إلى أصول جديدة وقواعد رصينة.

الخاتمة:

إنّ مسألة العلاقة بين البلاغة العربية وعلم التفكير الإبداعي علاقة في الصفات الذاتية، وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار العلاقة بين البلاغة والتفكير الإبداعي علاقة ماهيّة أكثر من كونها علاقة تبادلية تفاعلية.

إنّ الهدف من تدريس البلاغة في الفهم والإفهام والإقناع والتأثير لا يكاد يتحقق على أرض الواقع، وذلك ناجم من انعدام الترابط بين موضوعات كتب البلاغة كمادة دراسية وبين الحياة اليومية.

إنّ الإبداع ليس موهبة لاهوتية لا تعرف القانون والسنة، ولكنه قدرة كامنة يمكن تنميتها طالما لكل إنسان عقله وقلبه وشعوره.

إن النظر في العلاقة بين البلاغة العربية وعلم التفكير الإبداعي جزء بسيط من موضوع أشمل منه وأمتن، وهو موضوع النظر في مراتب العلوم، وتكامل المعارف، وهو موضوع لا يمكن فهمه فهماً صحيحاً إلا في إطار معرفي أشمل من التصنيف والترتيب، إطار يربط بين ذلك وبين مفهوم (التقويم)؛ تقويم النشاطات العلمية الإنسانية اعتماداً على مناهج علمية، ومبدأ (الوحدة) وحدة العلوم من خلال تقسيمها وتجميعها وإقامة هرمية لها.

الهوامش:

صفاء الأعسر، تعليم من أجل التفكير، دار قباء، القاهرة، د.ط، 1998م، ص2.

[2] صالح محمد أبو جادو ومحمد بكر نوفل، تعليم التفكير النظرية والتطبيق، دار المسيرة، عمّان، الأردن، الطبعة الخامسة، 2013م، ص29.

[3] محمد بكر نوفل، الإبداع الجاد مفاهيم وتطبيقات، مركز ديبونو لتعليم التفكير، عمّان، الأردن، د.ط، 2009م، ص19.

[4] السابق ص32.

[5] صالح محمد أبو جادو ومحمد بكر نوفل، تعليم التفكير النظرية والتطبيق، ص74.

[6] وليد العياصرة، وليد، مهارات التفكير الإبداعي وحل المشكلات، دار أسامة، عمّان، الأردن، د.ط، 2013م، ص92-89.

[7] محمد بكر نوفل، الإبداع الجاد مفاهيم وتطبيقات، ص55.

[8] محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، القاهرة، مصر، 1900م، 4/111.

[9] عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، د.ط، 1927م، 1/92.

[10] عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، 1/97.

[11] عمرو بن عثمان سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، 1990م، 1/27.

[12] عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، 1996م، 72-1/71.

[13] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودي، د.ط، 1991م، ص152.

[14] محمد أبو موسى، محمد، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، د.ط، 1983م، ص11.

[15] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص5.

[16] يوسف بن محمد السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000م، ص256.

[17] عبد العظيم ابن أبي الأصبع، بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، دار النهضة، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1957م، ص58.

[18] أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، د.ط، 1986م، ص166.

[19] ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،

بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1982م، ص29-28.
[20] تمام حسّان، تمام، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، علم الكتب، القاهرة، مصر، 2000م، ص362.
[21] صبحي صالح، صبحي، دراسات فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1970م، ص290.
[22] السابق ص293.
[23] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص67.
[24] أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1963م، ص190.
[25] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص67.
[26] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص166.

المصادر والمراجع:

- ابن أبي الأصبع، عبد العظيم. بديع القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، دار النهضة، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1957م.
- الأعسر، صفاء. تعليم من أجل التفكير، دار قباء، القاهرة، مصر، د.ط، 1998م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين، المطبعة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، د.ط، 1927م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، 1996م.
- أبو جادو، صالح محمد؛ ونوفل، محمد بكر. تعليم التفكير النظرية والتطبيق، دار المسيرة، عمّان، الأردن، الطبعة الخامسة، 2013م.
- الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدّة، السعودية، د.ط،

1991م.

- الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، د.ط، 1984م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، د.ط، 1986م.
- حسّان، تمّام. الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب،عالم الكتب، القاهرة، مصر، د.ط، 2000م.
- زكريا، ميشال. الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1982م.
- الزمخشري، محمود بن عمر. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، القاهرة، مصر، د.ط، 1900م.
- السكاكي، يوسف بن محمد. مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2000م.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، 1990م.
- الصالح، صبحي إبراهيم. دراسات فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1970م.
- العياصرة، وليد. مهارات التفكير الإبداعي وحل المشكلات، دار أسامة، عمّان، الأردن، د.ط، 2013م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1963م.
- أبو موسى، محمد. مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، د.ط، 1983م.
- نوفل، محمد بكر. الإبداع الجاد مفاهيم وتطبيقات، مركز ديبونو لتعليم التفكير، عمّان، الأردن، د.ط، 2009م.